مدخل إلى تاريخ الكنائس الإنجيلية ولاهوتها

جرجس صبحي

استطاعت الكنائس الإنجيلية، منذ نشأتها، أن تؤثر تأثيرًا عميقًا في الفكر الديني والاجتماعي في العالم أجمع، وفي الشرق الأوسط. لكن كان المُلاحظ لوقت قريب هو ندرة الدراسات المنشورة باللغة العربية تشتمل على العرض التاريخي والتعريف بالأفكار العقائدية واللاهوتية للكنائس المنتمية للفكر المصلح على اختلاف أطيافها. لهذا السبب، يُعد كتاب "مدخل إلى تاريخ الكنائس الإنجيلية ولاهوتها" للقس الدكتور عيسى دياب، أول كتاب شامل باللغة العربية يقدم تعريفًا شاملًا عن الكنائس الإنجيلية من حيث تنوعها وتاريخ نشأتها وتعاليمها.

صدرت الطبعة الأولى للكتاب عام 2009 بالتعاون بين مدرسة اللاهوت المعمدانية العربية في لبنان. وهو يستخدم منهجًا وصفيًّا وتاريخيًّا في عرض الموضوع؛ وهذا بسبب طبيعة المادة التي يتداخل فيها السرد التاريخي مع عرض الأفكار اللاهوتية. ومما يميز هذا الكتاب أيضًا هو مراعاته للجانب المسكوني؛ إذ استطاع المؤلف أن إلى الصورة الإنجيلية الذاتية، بعض الموضوعية عن رؤية الآخر -الطوائف المسيحية الأخرى- للإنجيليين.

ويتناول الموضوع في أربعة أبواب؛ الباب الأول يقدم تعريفًا بالكنائس الإنجيلية العامة في البلاد العربية وطريقة تنظيمها، والباب الثاني يسرد تاريخ الإصلاح الإنجيلي في أوروبا في القرن السادس عشر، بدءًا من تهيئة الساحة الثقافة في أوروبا الحاضنة للإصلاح، مرورًا بتأسيس الكنائس الإنجيلية وانتشارها في أوروبا والعالم الجديد، وصولًا إلى تأسيس كنائس إنجيلية في الشرق الأوسط، أما الباب الثالث فهو يهتم بعرض لاهوت الكنائس الإنجيلية على تنوعه، خصوصًا ما يتعلق بالتعاليم التي يتميز بها الإنجيليون عن غيرهم من المسيحيين، وفي الباب الرابع نجد دراسة حول تأثير الإنجيليين الروحي والفكري في العالم عمومًا وفي الشرق الأوسط خصوصًا.

مدخل عام إلى الكنائس الإنجيلية

يتعرض الكاتب في هذا الباب إلى تاريخ الكنائس البروتستانتية/ الإنجيلية في لبنان وسورية، منطلقًا من الاسم والتقسيم والانتماء التاريخي، موضحًا أن "الكنائس الإنجيلية متنوعة ومستقلة إداريًّا بعضها عن بعض، ولكل منها خصوصيات عقائدية أو ليتورجية تميزها عن غيرها". وأن الكنائس البروتستانتية تنتمي بشكل مباشر أو غير مباشر إلى حركات الإصلاح الديني التي بدأها مارتن لوثر خلال القرن السادس عشر في ألمانيا وانتشرت في معظم أنحاء أوروبا. وقد عرض في هذا الفصل أطياف الكنائس البروتستانتية في أربعة أنواع:

1. **الكنيسة اللوثرية الإنجيلية** (The Evangelical Lutheran Church)
2. **الكنيسة المصلحة** (The Reformed Church)**، وهي بدورها تضم نوعين:**
    أ. **الكنيسة المشيخية** (The Presbyterian Church)
    ب. **الكنيسة الجمهورية أو الاستقلالية** (The Congregational Church)
3. **الكنيسة الأنجليكانية** (Anglican Church)

4. **الكنائس الحرة أو "كنائس الإصلاح الراديكالي"، التي نتجت عن حركة الأنابابتست في القرن السادس عشر.**

ثم يهتم المؤلف في هذا الفصل بتقديم لمحة عن تنظيم الكنائس الإنجيلية في بلدان الشرق الأوسط، مشيرًا إلى أنه لا يوجد تنظيم نموذجي للكنائس الإنجيلية المشرقية ينطبق على بلدان الشرق الأوسط كلها، معتبرًا التنظيم القائم في لبنان وسورية، ويشبهه أيضًا تنظيم الكنائس الإنجيلية في مصر صورةً نموذجية عما يمكن أن يكون عليه تنظيم الكنائس الإنجيلية في بلدان الشرق الأوسط الأخرى؛ إذ يجمع بين الوحدة والتنوع.

ويوضح الكاتب في هذا الباب أيضًا عقيدة الكنائس الإنجيلية، مؤكدًا ان سائر الكنائس الإنجيلية تؤمن بقانون الإيمان النيقاوي/ القسطنطيني، وقانون إيمان الرسل، وأن لكل كنيسة اعتراف إيمان يتضمن في صلبه ما ورد في قانوني الإيمان هذين. ويؤكد أن للكنائس الإنجيلية مجتمعة خصوصيات تنظيمية ولاهوتية، مع وجود قواسم إيمانية مشتركة.

مدخل إلى تاريخ الكنائس الإنجيلية

يتضمن هذا الباب ستة فصول تتناول: الخلفية التاريخية والفكرية للإصلاح الإنجيلي، الإصلاح اللوثري ونشوء الكنيسة اللوثرية، الإصلاح الكالفيني والتسفتغلي ونشوء الكنيسة المصلحة، الإصلاح الإنجليزي ونشوء الكنيسة الأنجليكانية، الإصلاح الراديكالي ونشوء الكنائس الحرة، تأسيس كنائس إنجيلية في الشرق.

ويركز في الفصل الثاني على الوضع السياسي والاجتماعي والديني الذي كان قائمًا في أوروبا قبيل انطلاق شرارة الإصلاح الديني في ألمانيا، ومساهمات التطورات التاريخية والدينية والثقافية في تهيئة الأرضية المناسبة لاحتضان الإصلاح. عارضًا لما بعد انفصال كنائس الشرق عن الغرب وسيطرة البابوية على أوروبا واستئثارها بالسلطتين السياسية والدينية، وحالة الضعف الروحي، مما كان له أكبر الأثر في انطلاق حركة الإصلاح.

ويخصص الفصل الثالث لسيرة حياة المصلح مارتن لوثر وقصة نشوء الكنيسة اللوثرية، وقصة الاختبار الروحي الذي عاشه لوثر وغيَّر مفهومه عن الخلاص ونعمة الله، مما دفعه للمطالبة بإصلاح شامل، وما واجه حركة الإصلاح الناشئة من صعوبات ومحاربات من السلطة البابوية. وأصل تسمية أتباع حركة الإصلاح بالبروتستانت (Protestants) التي تعني المحتجين، بسبب احتجاج المندوبين اللوثريين على قرارات البرلمان الألماني لمحاولة ترتيب الأوضاع بين الكاثوليك واللوثريين، وتحول عدد كبير من الكنائس الكاثوليكية إلى لوثرية، وقضى البرلمان بمنع إجراء تغييرات كنسية جديدة والسماح بالعبادة الكاثوليكية في المناطق اللوثرية.

في الفصل الرابع يتطرق الكاتب للإصلاح الكالفيني، نسبة إلى جون كالفن (فرنسا)، والتسفنغلي أو الزوينجلي، نسبة إلى أولريخ زوينجلي (سويسرا)، وقد تعرف كلٌّ منهما إلى الآخر والتقيا في عدد كبير من الأمور، وساهما في نشوء الكنيسة المصلحة. ويمكن القول -وفقًا للكاتب- أن هذه الكنيسة تعود إلى تأثير الإصلاح اللوثري وخروجه من الحدود الألمانية إلى فرنسا وسويسرا وإنجلترا. ويرى الكاتب "أن الكنيسة المصلحة، والمعروفة أيضًا باسم المشيخية، قد أعطت المجتمع البشري

فكرًا دينيًّا وفلسفيًّا وتربويًّا واجتماعيًّا مميزًا، ولربما كانت هذه الكنيسة، خصوصًا في الفرع الجمهوري منها، هي الهيئة التي احتوت براعم الديمقراطية الحديثة...".

أما الفصل الخامس فيبحث في الإصلاح الإنجليزي ونشوء الكنيسة الأنجليكانية (الأسقفية)، ومن أهم أعلام الإصلاح الإنجليزي وليم تندل. لكن ربما كان الإصلاح الإنجليزي سابقًا لأي بلد أوروبي آخر على يد جون ويكليف في القرن الرابع عشر وأفكاره المصلحة، ثم جون هس. ويرجع الكاتب الشرارة الأولى للإصلاح الإنجليزي لرفض البابا الموافقة على طلاق الملك هنري الثامن، ملك إنجلترا، وإعادة زواجه من امرأة أخرى، وعندها أخذ هنري الثامن الخطوة الجريئة بفصل الكنيسة الإنجليزية عن الرئاسة البابوية. ومرت الكنيسة الأنجليكانية بعدة تغيرات وإصلاحات متأثرةً بانتشار الفكر المصلح في جميع أنحاء أوروبا.

الفصل السادس اهتم بتناول تاريخ الإصلاح الراديكالي ونشوء الكنائس الحرة، ومنها حركات الأنابابتست الإصلاحية التي نشأت في القرن السادس عشر، وروَّادها ونظرياتهم اللاهوتية، والكنائس التي نشأت من أنشطة هذه الجماعات. وتتلخص آراؤهم في: ممارسة معمودية الكبار، وفصل تام بين الكنيسة والدولة، وتركيز المواهب الروحية، والتركيز على سفر الرؤيا والأمور الإسخاتولوجية. وتأسست منهم جماعات وكنائس مستقلة في أماكن متعددة.

يستعرض الفصل السابع تأسيس كنائس إنجيلية في الشرق. ويبدأ أولًا بوصف الوضع المسيحي في الشرق قبيل وفود الإرساليات البروتستانتية؛ إذ أنشأت السلطة العثمانية نظام الملة، وهو نظام يعطي الطوائف المسيحية بعض الاستقلال في إدارة شؤونها، متطرقًا إلى معاهدة الامتيازات، التي وقعتها فرنسا وبعض الدول الأوروبية لتأمين الحماية للطوائف المسيحية الشرقية، ومشيرًا إلى الإرساليات الكاثوليكية التي كانت من مظاهر اهتمام الكنيسة الكاثوليكية بالشرق خاصة بعد الإصلاح الديني في أوروبا. وكيف شكَّل مجيء الإرساليات البروتستانتية تحديًا للمؤسسات الإرسالية الكاثوليكية، هذه المنافسة التي أنتجت أمرًا إيجابيًّا تمثل في بناء الكثير من المؤسسات التعليمية والدينية مساهمةً في قيام نهضة فكرية ودينية في الشرق.

كانت أقدم الإرساليات المنظمة إلى الشرق في فلسطين، حين اشتركت إنجلترا وبروسيا في القرن الثامن عشر في عمل إرسالي مشترك أثمر تأسيس كنائس أنجليكانية ولوثرية في فلسطين والأردن. في حين بدأ العمل الإرسالي المنظم في سورية ولبنان وتركيا في الربع الأول من القرن التاسع عشر وأثمر تأسيس كنائس إنجيلية مصلحة: مشيخية وجمهورية مع عدد كبير من المؤسسات التعليمية والدينية والثقافية. ومع بدايات القرن العشرين وفدت إرساليات إلى لبنان من كنائس إنجيلية مختلفة وأسست كنائس إنجيلية ذات طابع إصلاحي راديكالي. أما في مصر فقد بدأت محاولات تأسيس العمل الإنجيلي منذ القرن السابع عشر، لكن الإرساليات المنظمة أتت في منتصف القرن التاسع عشر، وأثمر هذا تأسيس كنائس إنجيلية مشيخية في مصر والسودان، إضافة إلى الكثير من المؤسسات التعليمية والإنسانية والدينية، وتأسست أيضًا كنائس إنجيلية أخرى تنتمي للإصلاح الراديكالي في مراحل لاحقة في بدايات القرن العشرين. كما تأسست كنائس إنجيلية مصلحة في العراق والخليج العربي نتاج إرساليات عديدة وفدت إلى المنطقة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.

ويرى الكاتب ضرورة انتقال الكنائس الإنجيلية المشرقية من مرحلة "الغربنة" إلى مرحلة "الشرقنة"، وأن عليها أن تنغرس أكثر وأكثر في عمق أرض هذا الشرق العزيز.

مدخل إلى لاهوت الكنائس الإنجيلية

في ستة فصول يرصد الكاتب لاهوت الكنائس الإنجيلية واعترافات الإيمان التاريخية في الكنائس الإنجيلية، والكتاب المقدس في الكنائس الإنجيلية، والتقليد في الكنائس البروتستانتية، والخلاص في مفهوم الإنجيليين، ومفهوم الكنيسة وتنظيمها وخدمتها في اللاهوت الإنجيلي.

يرى الكاتب في الفصل الثامن أنه نظرًا للتنوع الكبير في الكنائس الإنجيلية ليس من السهل كتابة مقدمة عامة عن لاهوت هذه الكنائس. لذا فهو يركز هنا على الطابع الجوهري للاهوت الإنجيلي واصفًا الملامح العامة للاهوت البروتستانتي في ست نقاط هي:

1. ذو طابع كتابي
2. لاهوت اختباري وعملي
3. متنوع
4. شعبي
5. فرداني (Individualistic)
6. غربي

ويشير إلى أن التنوع في اللاهوت البروتستانتي ناتج عن تنوع الكنائس البروتستانتية وروح الديمقراطية التي هي لب الممارسة الكنسية البروتستانتية.

الفصل التاسع يهتم باعترافات الإيمان التاريخية في الكنائس الإنجيلية، ونظرة الكنائس الإنجيلية إلى مفهوم قانون الإيمان، عارضًا قانوني الإيمان التاريخيين المعتمدين في جميع الكنائس المسيحية: قانون إيمان الرسل، وقانون الإيمان النيقاوي القسطنطيني، ثم قوانين الإيمان التي أعدتها الكنائس الإنجيلية في القرن السادس عشر والتي تضمنت العقائد المسيحية المشتركة كالثالوث والتجسد والفداء والمجيء الثاني والقيامة والدينونة الأخيرة، وتضمنت أيضًا الخصوصيات الإنجيلية المتعلقة بالكتاب المقدس والتقليد والخلاص وخدام الكنيسة وتنظيمها وسلطتها وأسرارها أو فرائضها. ويتتبع موضوع "قوانين الإيمان الإنجيلية" والتوجهات العامة في صياغتها.

يحتل موضوع الكتاب المقدس في الكنائس الإنجيلية اهتمام الفصل العاشر، وكيف كان إحياء دراسة الكتاب المقدس عاملًا رئيسًا في نشأة حركة الإصلاح وتبني حركة الإصلاح شعار "الكتاب المقدس وحده Scriptura sola" للتعبير عن أن الكتاب المقدس هو المراجع الأعلى وصاحب السلطة لكل ما يتعلق بالعقيدة والسلوك. متعرضًا للقضايا المعاصرة مثل "الوحي الحرفي أو اللفظي"، و"عصمة الكتاب المقدس"، و"سلطة الكتاب المقدس"، وما نتج عنها من تيارات لاهوتية مختلفة. ومقسمًا الإنجيليين في موقفهم من الكتاب المقدس، وقضايا أخرى، إلى خمس فئات:

1. الليبراليون
2. الأرثوذكس الجدد
3. المحافظون المنفتحون
4. المحافظون المنغلقون
5. الأصوليون الانفصاليون

في الفصل الحادي عشر نجد عرضًا شاملًا لقضية التقليد في الكنائس البروتستانتية، مؤكدًا عدم دقة المفهوم القائل بأن المصلحين البروتستانت الكلاسيكيين كانوا ضد التقليد، وأن السؤال كان حول: أي نوع من التقليد هو الأفضل؟ وليس: هل نقبل التقليد أم نرفضه؟ متتبعًا التطور التاريخي لقضية التقليد الآبائي في التيارات الإنجيلية المختلفة.

يستعرض الفصل الحادي عشر موضوع الخلاص في مفهوم الإنجيليين، وخبرات المصلحين الأوائل ثم في اعترافات الإيمان التي صاغوها أو صاغها الرعيل البروتستانتي الأول.

أما الفصل الثاني عشر، وهو أطول فصول الكتاب، فهو يهتم بمفهوم الكنيسة وتنظيمها وخدمتها في اللاهوت الإنجيلية؛ أولًا "الكنيسة على أنها شعب الله في العهد القديم والعهد الجديد، وهي شعب العهد الجديد في لاهوت كنائس الإصلاح الراديكالي، وأكد أن اللاهوت المصلح يشدد على أن العلامات الصحيحة للكنيسة الحقة هي الكرازة بالكلمة وممارسة السرَّيْن بالطريقة التي ينص عليها الكتاب المقدس. وعارضًا الأنظمة الثلاثة المطبقة في الكنائس الإنجيلية:

1. النظام الأسقفي (السلطة في الأسقف)
2. النظام المشيخي (السلطة في المشيخة)
3. النظام الجمهوري (السلطة في جمهور الكنيسة المحلية)

ويركز هذا الفصل أيضًا على إيمان الإنجيليين بـ"لاهوت جميع المؤمنين"، وأنه يوجد نوعان من الخدام: الشيوخ المعلمون، والشيوخ المدبرون.

ثم يفرد هذا الفصل مساحة للتعرف على اللاهوت الأسراري الذي تؤمن به الكنائس الأنجليكانية واللوثرية والقسم الأكبر من الكنائس المصلحة، موضحًا أن الأسرار اثنان هما: المعمودية، والعشاء الرباني. ثم يتطرق إلى خدمات العبادة ونظامها وترتيبها واختلافاتها بين الأطياف الإنجيلية المختلفة.

مآثر الإنجيليين

ويتناول هذا الباب خلاصةً عامة حول المآثر الروحية والفكرية للكنائس الإنجيلية.

- أولًا المآثر الروحية:
  - الإصلاح الكاثوليكي
  - إعلاء شأن الكتاب المقدس في الكنيسة
  - إعلاء الدور العلماني في حياة الكنيسة
  - إدخال الترنيم الجمهوري والكورالي إلى برنامج العبادة الكنسية
  - تنشيط العمل المرسلي

- ثانيًا: المآثر الحضارية:
  - نهضة اللغة والأدب
  - الاهتمام بالتربية والتعليم
  - التأثير الإيجابي في الفكر الاجتماعي والسياسي: الديمقراطية، فصل الدين عن الدولة، الحرية الدينية والاجتماعية، قيمة الفرد والمساواة، الإصلاح الاجتماعي، الحركة العلمية، الموسيقى، الاقتصاد.
- ثالثًا: مآثر الحركة الإنجيلية في الشرق
  - النهضة الروحية للكنائس الشرقية
  - الحركة المسكونية المشرقية
  - النهضة التربوية
  - النهضة الثقافية
  - التزام الإنجيليين بقضايا الشرق
  - المساهمة في نشوء الفكر العلماني في الشرق

ويختتم الكاتب أفكاره بأن "الكنائس الإنجيلية شجرات مثمرة ومساكب غنية، وورود عطرة في بستان المسيحية المشرقية، وعليها واجب العطاء في هذا البستان، ولها حق الأخوة والمشاركة مع شجرات وورود هذا البستان، وما انفكت يومًا عن المساهمة في إبراز جمال هذا البستان لكل من يريد أن يرى الجمال والانسجام والتكامل في التنوع...".